ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

مقالات

الهجرات العربية في إفريقيا جنوب الصحراء
وأثرها في نشر اللغة العربية والأدب العربي



د. إبراهيم برمة أحمد
أستاذ باحث تاريخ حديث ومعاصر
مدير إدارة شؤون الموظفين والموارد البشرية
جامعة الملك فيصل – جمهورية تشاد

مُلَخّصْ

انتشر الإسلام في إفريقيا بصورة سلمية عن طريق القادة الفاتحين والدعاة والتجار المسلمين الذين كانت تجوب قوافلهم الصحراء جيئة وذهابًا، وقد استكملت الهجرات حلقة من حلقات انتشار الإسلام في إفريقيا في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، ونشأت في إفريقيا ممالك ومراكز وقرى كان لها أثر كبير في نشر الدعوة الإسلامية واللغة العربية. وللهجرات العربية أثر كبير في إفريقيا جنوب الصحراء، وقد تعددت هذه الهجرات حيث سلك العرب الطرق الوعرة للوصول إلى هذه المنطقة سعيًا منها بهدف نشر الدين الإسلامي واللغة العربية وآدابها في المنطقة، وبما إن الهجرات العربية كانت قديمًا عاملاً مهمًا في نشر الأفكار والفنون والعادات والتقاليد ونقلها من منطقة لأخرى، يهدف البحث هنا إلى دراسة هذه الهجرات التي وصلت إلى إفريقيا جنوب الصحراء والأثر الذي تركته فيها محاولا كشف الغموض المتعلق بنشر اللغة العربية وآدابها. وتهدف الدراسة أيضًا إلى توضيح العوامل التي ساعدت في نشر الإسلام واللغة العربية وآدابها في كافة مجالات الحياة، وبيان أهمية وأثر هذه الهجرات في واقع الحياة ونشر اللغة العربية في المنطقة. أما أهمية الدراسة فإنها تكمن في توضيح العوامل التي ساعدت في نشر الإسلام واللغة العربية في كافة مجالات الحياة اللغوية والأدبية في إفريقيا جنوب الصحراء. إضافة إلى أثر تلك الهجرات من حيث النهوض باللغة العربية وآدابها وذلك من خلال دور العلماء والدعاة والتجار في إفريقيا جنوب الصحراء. والمنهج المتبع لهذه الدراسة يتمثل في المنهج الوصفي التاريخي والمنهج التحليلي الذي يقوم على جمع المادة وتحليلها من مصادرها ومراجعتها وترتيبها وصولاً إلى استنتاجات علمية واضحة تفيد جوانب البحث العلمي الأصيل.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠١ أغسطس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أغسطس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الممالك الإسلامية، وادي النيل، الجزيرة العربية، القبائل العربية، الطرق الصوفية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0053267

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إبراهيم برمة أحمد. "الهجرات العربية في إفريقيا جنوب الصحراء وأثرها في نشر اللغة العربية والأدب العربي".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الواحد والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٨. ص٤٦ – ٥٢.

مُقَدِّمَةُ

كانت الحياة في إفريقيا جنوب الصحراء يسودها المعتقدات الشائعة والعادات والتقاليد، هذا مما ساعد على فهم عقلية الإنسان المسلم الأفريقي المعاصر وكذلك بعض تصرفاته التي قد تتنافى عن مبادئ الإسلام وتعاليمه السامية. وكان الإنسان الأفريقي في ذلك الوقت يؤمن بالقيم الروحية فكلما نوى أن يقوم بأداء حركة هامة أو تافهة تسبقها فكرة دينية أو عقائدية سواء كان في الميدان الاجتماعي أو السياسي أو في مجال النشاط الاقتصادي. ولهذا ينبغي على الدعاة أن يدرسوا خلفية ذلك المكان الذي يمكن أن تبلغ فيه الدعوة دراسة شاملة وموضوعية حتى يتسنى لهم من معرفة مكان الضلال والانحراف وكذلك أسلوب العمل الذي يتفق مع البيئة وأقلية الناس واستعداداتهم النفسية وميولهم واستجاباتهم للدعوة. وكان من الصعب الفصل بين المجال الديني والعلاقات الاجتماعية لأن المعتقدات تجاوز الفرد، وكان أول ما يشعر به الإنسان هو الوازع الديني أو الخوف

من الأخطار والخضوع للعادات والتقاليد التي تفرضها الجماعة أو الطقوس والشعائر الدينية.

أولاً: الهجرات العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء

الهجرات جمع هجرة، والهجرة هي الخروج من أرض إلى أرض أخرى أو انتقال الأفراد من مكان إلى آخر سعيا وراء الرزق(١). ونستنتج من ذلك أن الهجرات تكون سبب الحاجة، وأن الحاجة هنا قد تكون متنوعة منها: العقائدية، المعيشية، الأمنية، الاقتصادية، السياسية، العسكرية - إضافة إلى الكوارث الطبيعية وغيرها، وقد استمرت هذه الهجرات العربية على آلاف السنين وأنتشر العرب في مساحات واسعة من العالم، وذلك عبر هجرات متتابعة في فترة ما قبل التاريخ، فوصلوا إلى إفريقيا جنوب الصحراء وغيرها، وقد أصيبت منطقة شبه الجزيرة العربية في فترة ما قبل التاريخ بالقحط ونقص الأمطار والتصحر وبدأ السكان في الهجرة بحثًا عن الكلأ والمرعى فاتجهوا نحو الجنوب حيث اليمن وبلاد الرافدين دجلة والفرات وإلى مصر وادي النيل غربًا(٢).

١/١-هجرة وادي النيل

عرفت القرون السابقة لفترة ما قبل الميلاد وما بعده في إفريقيا السوداء بالقرون الغامضة، وقد شهدت هذه القرون هجرات وادي النيل إلى عمق القارة الأفريقية وإقامة علاقات منظمة، وفي الجانب الآخر كان الفينيقيون واليونانيين والعرب يتداولون الهيمنة على البحرين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وقد حدثت أيضًا هجرات وتمازجات في منطقة جنوب الصحراء الكبرى الأفريقية(٣). ونستنتج من هذه المعلومات أن هناك هجرات في التاريخ القديم قد توجهت إلى عمق القارة الأفريقية التي منها منطقة إفريقيا جنوب الصحراء ومن هذه الهجرات هجرة وادي النيل.

٢/١-هجرات الجزيرة العربية

أسهمت الهجرات العربية نحو إفريقيا جنوب الصحراء ففي هذه المنطقة بدرجة كبيرة، تقدمت قبائل بني سليم والهلاليين جنوب الصحراء بحثًا عن مناطق تشبه إلى حد ما بيئتها الأولى التي تعودت عليها في الجزيرة العربية، واختلطا هذه القبائل بغيرها من القبائل البربرية والزنجية مما أدى إلى تغيير أساسي في توزيع السكان وتجمعهم في مناطق صالحة للإقامة في الواحات أو على ضفاف الأنهار وساعد ذلك بدوره على نشر الإسلام في المناطق التي نزحت إليها تلك القبائل(٤). وهناك هجرة عربية مبكرة قام بها نفر من بني أمية بعد زوال دولتهم على يدي بني العباس، كما أن الذين أسسوا معظم الممالك الإسلامية في السودان كوداي وكانم برنو وباقرمي، كانوا من العرب المهاجرين من اليمن وهناك قبائل عربية هاجرت إلى هذه المنطقة في عهد الفاطميين(٥)، معظمهم من أصحاب المذهب المالكي الذين طردهم الفاطميون، كما شهدت المنطقة هجرات عربية أخرى إبان العصر المملوكي.

٣/١-الهجرات الشمالية

انتشر الفينيقيون على ساحل البحر الأبيض المتوسط فأنشئوا مدنًا ودولاً منها صور بيروت، وكانت لهم علاقات قوية بالفراعنة منذ الألف الثالث قبل الميلاد وهم تجار يحثون عن الفضة والقصدير، فشيدوا مراكز مهمة على الشواطئ الأفريقية أهمها (قرطاجة) ثم تعاقب على بلادهم المصريين والفرس واليونان والرومان(٦). وعن التواصل بين شمال الصحراء وجنوبها ذكر غريول بأنه كان يسأل كما يجتاز الصحراء عن التواصل بين البيض في الشمال والسود في الجنوب، ويرى بان هذا التواصل قد وجد منذ ألاف السنين، وان الصحراء كانت معبرًا مرتادا من قبل البشر. وكان التواصل البشري عبر الصحراء في فترة ما قبل الأسرات قد تناقص فلم يمكن التبادل معروفا في تلك الفترة، وربما يعود ذلك لزيادة توسع الصحراء وعدم وجود وسائل النقل الخاصة بالصحراء. وأما عن تواجد هجرات شمالية إلى إفريقيا جنوب الصحراء، ذكرت بعض الرواة أن الرومان الذين احتلوا شمال إفريقيا لم يطلقوا على الصحراء الأمن البعيد، وقد تحدثت بعض المصادر عن حروب كانت لهم مع قبائل الغرامونت حيث كان البدو يشكلون ملاذًا آمنًا للمتمردين ضد الوجود الروماني، وقد خلفت قبائل الغرامونت مدافق ضخمة في شمال تشاد وجنوب ليبيا(٧). إذا الهجرات الشمالية قد هبطت إلى المنطقة على شكل أعداد كبيرة من قبائل البربر وفي الأرجح الأمازيغ الذين اختلطوا واندمجوا بالزنوج الوطنيين المقيمين حول شواطئ حوض تشاد.

ثانيًا: طرق وعوامل دخول الإسلام

١/٢-طرق دخول الإسلام

لا مراء أن المسالك التي سلكها الدعاة إلى الإسلام من الجزيرة العربية إلى أفريقيا كلها انتهت بالمهاجرين إلى مصر، ومن مصر تفرعت تلك الطرق من جديد فمنها المتجه نحو شمال أفريقيا ومنها المتجه نحو شرقيها ومنها المتجه نحو أواسط أفريقيا إلى بحيرة تشاد(٨). أما الطرق التي سلكها الإسلام إلى إفريقيا جنوب الصحراء فهي كالتالي:

طريق شمال أفريقيا: مصر، برقة، طرابلس، إريقية، بلاد تونس، المغرب الأوسط، الجزائر وجزء من مراكش بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال.

طريق القوافل: من بلاد المغرب الأقصى إلى شمالي بلاد السودان ولا سيما من جنوبي تونس إلى بلاد البرنو غرب بحيرة تشاد، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد شمال نيجريا، ومن جنوب مراكش على مصب السنغال ومنحنى النيجر الأوسط(٩).

الطريق الثالث يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل، ينحدر الناس حتى أسنا بمصر ثم من أسنا يمتد طريق الأربعين حتى دارفور ووداي ومن هناك إلى بحيرة تشاد(١٠).

طريق باب المندب: وعن هذا الطريق انتشر الإسلام في القرن الإفريقي وشرق أفريقيا وكانت معرفة العرب بساحل أفريقيا الشرقية قديمة ولازال الشاطئ يحمل أسماء من الجنوب العربي في مناطق مصوع وعصب وما وراءها من بلاد إفريقيا جنوب الصحراء(١١).

الطريق الذي يبدأ من مصر عبر واحة عجيلة ثم واحة سيوة ويسير عبر واحة فزان إلى بلاد الهوسا(١٢).

كل هذه الطرق سلكها التجار والمهاجرون من العرب وغيرهم وهؤلاء كانوا دعاة إلى الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء بالطرق السلمية.

أما تاريخ دخول الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء فإن المؤرخين قد اختلفوا في ذلك ومرد هذا الاختلاف إلى أمرين، أولهما: دخول الإسلام لم يكن عن حملة عسكرية يؤرخ له بسقوط دولة ما أو هزيمة جيوش معادية للمسلمين في واقعة ما وقيام حكم الإسلام على أنقاضها. آخرها: بعض المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع معظمهم لم يفرق بين تاريخ دخول الإسلام وانتشاره، بل أرخوا له من فترة انتشاره، ولم يلاحظوا فترة دخوله التي سبقت فترة انتشاره لعامل من العوامل ولذلك عند الحديث عن انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء لابد من التفريق بين التاريخين، ونشير إلى أقرب الروايات التاريخية التي ذكرها المؤرخون في هذا المجال:

- أن الإسلام دخل في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الأول الهجري بالتحديد ٤٦هـ.
- أن الإسلام دخل في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الحادي عشر الميلادي.
- أن الإسلام دخل في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الرابع عشر الميلادي.(١٣)

الرواية القريبة إلى الواقع هي الرواية الأولى لأن دخول الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء مرتبطا ارتباطًا وثيقًا بتاريخ الفتوحات الإسلامية في مصر وشمال إفريقيا.

٢/٢-العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام واللغة العربية

لا شك أن هناك عدة وسائل وطرق تم بواسطتها انتشار الإسلام واللغة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء ومن أهم الوسائل ما يلي: هجرات القبائل العربية - هجرات القبائل غير العربية - التجار - الطرق الصوفية - المراكز الداخلية.

(٢/٢) ١-هجرات القبائل العربية

ضاقت الجزيرة العربية بسكانها بسبب الجفاف الذي أصابها وكانت اليمن قبل انهيار سد مأرب غنية التربة غنية الحضارة وحافلة بالناس فلما انهار السد ضاقت اليمن بسكانها فاتجه العرب منذ عهد بعيد إلى تجاه الشمال إلى بلاد الشام والعراق وإلى شمال الغربي إلى مصر أو عبر البحر الأحمر إلى إفريقيا. وقد وصل قبائل غير اليمنية إلى جنوب الصحراء والدافع لتكل الهجرات مشاكل اقتصادية وتارة سياسية وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أماكن متعددة من الجزيرة العربية إلا أن المهاجرين جميعا خدموا الإسلام ونشروه وكذلك اللغة العربية وآدابها(١٤).

(٢/٢) ٢-هجرات القبائل غير العربية

يعتقد المسلمون أن الإسلام دين الناس جميعا وأن المسلم أيًا كان جنسه يحس بأن الإسلام دينه يشفي اتجاهاته الروحية وينير له السبيل ويهديه لما فيه خير الدنيا والآخرة ولا يحس المسلم أيًا كانت جنسيته انه دخيل على جماعة المسلمين وأن الإسلام مستورد إليه فالمسؤولية تجاه نشر الإسلام والدعوة إليه يشترك فيها العرب وغير العرب وقد قام العرب بنصيبها من المسئولية دون إهمال أو تقصير وقام غير العرب بنصيبهم كذلك دون إهمال وسنرى فيما يلي صورة من نشاط المسلمين غير العرب لنشر الإسلام واللغة العربية في جنوب الصحراء. ولعل أقدم الهجرات التي قام بها المسلمون غير العرب هي تلك الهجرة الفارسية التي قدمت من شيراز في القرن العاشر الميلادي وكانت بزعامة حسن بن علي ويروى وأسس هؤلاء المهاجرون مدينة كلوا(١٥).

٣/٢-انتشار الإسلام بواسطة التجار

ينبغي في مطلع هذا الحديث أن نوضح أن المقصود بالتجار هنا التجار غير المستوطنين في هذا القطاع الذي نتحدث عنه أي التجار الذين يغدون بقصد التجارة ثم يعودون لموطنهم الأصلية في شمال القارة انتشر الإسلام ودخل الناس في دين الله أفواجا ولذلك لما رأوه عند التجار من حسن الخلق وحسن التعامل والوفاء للعهود والصدق والأمانة وسماحة النفس وغيرها من أخلاقيات النبوة الراقية واقتنعوا بذلك القيم الإنسانية و تبنوا الإسلام ونشروه في أوساط مجتمعهم الوثني، وكانت هناك

بإفريقيا مسالك عرفها التجار منذ أمد بعيد وكانت هذه المسالك تربط شمال الصحراء وجنوبها أو تصل بين شرقي القارة ووسطها وقد سار رحال العرب ووصفوا تلك الطرق بأدق وصف وبينوا مركز التجارة ولذلك سمى كثير كتب هؤلاء الرحالة المسالك والممالك.

٢/٤-دور أصحاب الطرق الصوفية

قامت الطرق الصوفية بدور هام في نشر الإسلام ونقل المؤثرات واللغة العربية إلى إفريقيا جنوب الصحراء، وكان هناك بعض من الأشخاص المشهورين بالتقوى والروع عاشوا بالمنطقة، ووصفت منطقة تمبكتو بأنها كانت مؤلف أولياء الزاهدين، وقيل عن مدينة جني قد ساق الله تعالى لها سكانا من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى[١٦]. وقد ساعد على انتشار الطرق الصوفية في المجتمعات الأفريقية حلقات الذكر التي وجدت قبولاً من الأفارقة وكان لكل شيخ أتباع يطيعونه ويمتثلون أوامره ويقدرونه حق تقدير، ويؤسسون المدارس والمساجد واستقطاب مزيد من العناصر الموالية لهم.

وقد لعب رجال الطرق الصوفية دور بارزًا في توجيه الأهالي إلى أمور دينهم، وكما عملت الطرق الصوفية على غرس القيم الفاضلة مثل: حب الجار وحسن التعامل والمساهمة في توسيع رقعة الإسلام وانتشاره عن طريق الإكثار من بناء المساجد ومصاهرة الأفارقة الوطنيين وشراء العبيد وعتقهم بعد تلقيهم أصول العقيدة الإسلامية ولغتها حتى يتمكنوا من استيعابها ونشرها عند رجوعهم إلى بلادهم. وكلما تقدم يتضح لنا أن الطرق الصوفية قد لعبت دورًا هاما في نشر العقيدة الإسلامية واللغة العربية والأدب العربي في إفريقيا جنوب الصحراء[١٧].

٢/٥-من المراكز داخلية

خلقت الوسائط التي سبق أن ذكرها جوًا إسلاميا بإفريقيا، وتعاونت مراكز الشمال، والهجرات العربية، وغير العربية، والتجار، والدعاة، والطرق الصوفية، درس دعائم الإسلام في هذه المنطقة التي نتكلم عنها، وفي نشر الإسلام بين السكان الأصلين، ثم جاءت الخطوة الجديدة وهي القيام بالنشاط الداخلي، نابع من المنطقة ويخدم نفس الأهداف التي خدمها الوافدون، والتي غذتها المراكز الثقافية بالشمال فظهرت زعامات إسلامية عظيمة في هذا القطاع نفسه، ويمكن القول أن هذا النشاط الداخلي كان أبعد أثرًا في خدمة الإسلام وأكثر نجاحًا، إذ صور الإسلام بصورة ثقافية قومية وفكر إفريقي، فلم يعد الدخول في الإسلام تبعية لدولة غريبة واعترافًا بدين جماعات من الخارج، بل أصبح انضواء تحت رايات يحملها زعماء من الداخل، وأصبح الدخول فيه يعنى الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم، وهذا ما حقق ما يشبهه بعض المفكرين بسباق التتابع، فزمام الدعوة للإسلام حمله العرب في مطلع الإسلام إلى إفريقيا، وتسلمه منهم البربر ليندفعوا به جنوب الصحراء، وهناك أسلموه إلى الزنوج وكل هذه الجماعات تعاونت في الهتاف بوحدانية الله وبأن محمدًا "رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وأصبح الانضواء تحت هذه الرايات أملا ضروريًا في الناحية القومية من الناحية الحضارية وفي هذا المبحث سنعيش مع الزعامات المسلمة ومع المراكز الإسلامية الإفريقية وهي: المرابطون - الهوسا والفولاني - عثمان دنفديو - دعاة من الفونج. ويلاحظ أن المراكز الثقافية كثيرًا ما كانت أسواقًا تجارية في نفس الوقت، لشدة ارتباط الدعوة الإسلامية بالتجارة كما قلنا من قبل ولكن هناك مراكز غلب عليها أحد الطابعين مع وجود الاثنين بها[١٨].

ثالثًا: أثر الهجرات في النهوض باللغة والأدب العربي في إفريقيا جنوب الصحراء

تُعدّ الهجرات العربية المتدفقة إلى إفريقيا عامة ومنطقة إفريقيا جنوب الصحراء بصفة خاصة من أهم الوسائل لنشر الإسلام واللغة العربية في العالم كافة، وقد وصل الإسلام إلى بعض المناطق الإفريقية وأحدث تأثير مباشرًا في تلك المناطق. ويذكر الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي، موضحًا الأثر بأنه في حد ذاته تاريخ[١٩]، وقد لعبت الهجرات العربية في بلاد إفريقيا جنوب الصحراء دورًا مماثلاً للدور الذي لعبته في نشر الإسلام حيث أن هذه الهجرات حملت لواء الإسلام واللغة العربية في المنطقة وطبعت البلاد بطابع لايزال مستمر إلى اليوم. وقد أثر انتشار الإسلام واللغة العربية على مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والدينية مما ساهم في قيام الممالك الإسلامية بالمنطقة مثل: كانم – وداي – باقرمي، والتي لها الدور البارز في انتشار الإسلام واللغة العربية وظهور حضارة متميزة صبغها الإسلام في شتى مناحيها.

٣/١-إقامة الممالك الإسلامية

لقد تأسست بعض الممالك الإسلامية في إفريقيا جنوب الصحراء وأهمها ثلاث:

مملكة كانم: تعتبر مملكة كانم أول مملكة إسلامية تأسست في إفريقيا جنوب الصحراء في القرن الثاني الهجري على أيدي جماعة قادمين من شمال شرقي بحيرة تشاد، وكانوا وثنيين، ثم دخلها الإسلام في أواخر القرن الخامس، وأول الأمراء الذين اعتنقوا الإسلام رجل يدعى: السلطان أومي وانتشر الإسلام واللغة

العربية في عهده انتشارًا واسعًا. وبعد أحداث تعاقبت عليها البورنو، وأصبحت قبائل الهوسا كلها تحت حكمها، وساد الإسلام في القبائل الوثنية.(٢٠)

مملكة ودَّاي: تقع وداي، منطقة في الشرق، وعرة المسالك حكمتها أسرة التنجر حتى القرن العاشر الهجري وكانت وثنية، جاءت من الصحراء هربًا من قبائل بني هلال، كان أول الملوك المسلمين هم عبد الكريم الذي أصبح سلطانًا عام ١٦٢١م، وخلفه أبناءه، وبعد أحداث من الفرقة بين الأسرة المالكة تدخل الفرنسيون وسيطروا على المنطقة.

مملكة باغرمي: وصل إليها الإسلام في مطلع القرن السادس الهجري، وكان السلطان بريمي أول الحكام المسلمين فيها. وقد عم الإسلام في عهد السلطان الحاج محمد الأمين، وجرت أحداث، ثم ضمها الأمير رابح إلى سلطانه وبقيت تحت قيادته حتى عام ١٩٠٠م.(٢١)

٢/٣-تكوين العلماء

لعبت الممالك الإسلامية والمراكز الدعوية دور باز في إفريقيا جنوب الصحراء في سبيل تكوين العلماء والدعاة وكان تأثير الدعوة الإسلامية في إفريقيا بصفة عامة وإقليم إفريقيا جنوب الصحراء بصفة خاصة أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية وتأسيس المساجد والخلاوي بصورة واسعة لتعليم أبناء المنطقة. وقد نتج عن هذا تخريج علماء من أصول أفريقية، حيث قام هؤلاء العلماء بدور فعال في نشر اللغة العربية وآدابها فبالإضافة إلى تعليم الناس القرآن الكريم وتحفيظه لهم تدرس العلوم الأخرى وذلك سعيا منهم في انتشار اللغة العربية والدب العربي في ربوع القارة الإفريقية. وأصبحت هذه المدارس والخلاوي تتأثر وتزدهر وأصبحت مراكز إشعاع حضاري يستقطب أبناء إقليم إفريقيا جنوب الصحراء فوجدت الحياة الثقافية والفكرية تشجيعًا كبيرًا من الملوك المسلمين.

ولقد كانت مهنة التعليم في أول الأمر مقصورة على الفقهاء والمعلمين والدعاة القادمين من مناطق الوطن العربي ثم بعد ذلك تكونت طبقة مثقفة من الأهالي الوطنيين وتولوا مهمة التعليم وكانت غالبية هؤلاء من الفقهاء الذين أتقنوا اللغة العربية لغة الدين والثقافة الإسلامية. حيث قام هؤلاء العلماء والفقهاء بمهمة الدعوة الإسلامية فأنشئوا المدارس والخلاوي والمساجد ونشروا الإسلام واللغة العربية في أفريقيا بصفة عامة ومنطقة إفريقيا جنوب الصحراء بصفة خاصة(٢٢).

٣/٣-إنشاء المراكز الحضارية

عندما دخل الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء أعتنقه الملوك والرعية وشجعوا عليه وأحتل المتعلمون مكانة عظيمة بعد أصحاب المناصب الكبرى في الدولة ونالوا شرف عظيم بين الناس من احترام وتقدير ليس في البلاد الإسلامية وحدها بل في القرى التي فيها المدارس والخلاوي، ومن أهم المراكز الحضارية التي ساعدت في انتشار اللغة العربية وآدابها نذكر الآتي:

الخلاوي:

الخلوة هي المكان الخالي أو الموضع الذي يزاحم فيه ويطلق الخلاوى على المكان الذي يخلو فيه المرء بنفسه مع الله تعالى أو يخلوا فيه معلم القرآن الكريم بمن يعلمهم.

المساجد:

المسجد في الإسلام هو الرائد في تعليم وتوجيه الأمة من الناحية الدينية والثقافية ويقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ويتعبدون فيها ويعقدون حلاقات الذكر والدراسة (ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا).

وهو أول مؤسسة تعليمية في الإسلام وبؤرة الإشعاع الحضاري والثقافي ولم يقتصر دور المسجد في التعليم الديني بل درس فيه أيضًا العلوم الأخرى ولعب المسجد دور النشر للكتب الإسلامية إذ ألقى العديد من العلماء كتبهم بالمساجد فكتب: (الإمام مالك كتاب الموطأ في المسجد النبوي الشريف وفي رحاب جامع عمر بن العاص ألف الإمام بن إدريس الشافعي كتاب الأم، وفي مسجد البصرة كتب الإمام الخليل بن أحمد الفراهيدي كتاب العين في العروض(٢٣).

المسيج:

المسيج هو تصغير لكلمة مسجد وهو مكان للذكر وحفظ القرآن الكريم وأداء الصلوات الخمس كما يطلق عليها كلمة (مسيك)، وأورد الدكتور بكر محمود عطية العشري: (إن المسيج يطلق على الأولاد الذين يتعلمون القرآن أينما حلو حتى ولو جلسوا تحت شجرة أو بجوار جدار أو فناء بيت)

المدارس:

انتشر التعليم النظامي في كانم في النصف الأول من القرن الثالث عشر وكانت أولى المدارس التي تأسست هي مدرسة بن الرشيق بالقاهرة ١٢٤٢هـ وفي القرن الخامس عشر الميلادي ساد نظام التعليم على نمط المدارس التي انتشرت في كانم مدرسة كلبرد ومدرسة الشيخ أحمد الفاطمي(٢٤). ولقد لعبت هذه المراكز الحضارية والثقافية والدعوية دورا بارزًا في نشر الإسلام

واللغة العربية في القارة الإفريقية عامة ومنطقة إفريقيا جنوب الصحراء خاصة وعلى ضوء هذا الاهتمام الكبير الذي خطب به أهل العلم وأصبحت هذه المراكز قبلة تتجه إليها الطلاب من جميع أنحاء المنطقة.

خَاتِمَةُ

هدفت الدراسة إلى توضيح العوامل التي ساعدت في نشر الإسلام واللغة العربية وآدابها في كافة مجالات الحياة، وبيان أهمية وأثر هذه الهجرات في واقع الحياة ونشر اللغة العربية في المنطقة. وقد توصلت إلى أن المجتمع الإفريقي في إفريقيا جنوب الصحراء كغيره من المجتمعات البشرية كانت له معتقدات متعددة قبيل انتشار الدعوة الإسلامية. فقد كان اتصال إفريقيا جنوب الصحراء بالعالم الخارجي منذ أقدم العصور قبل انتشار الإسلام، وتُعدّ منطقة إفريقيا جنوب الصحراء من المناطق التي وصل إليها الإسلام مبكراً.

لقد كانت الهجرات الإسلامية بنوعيها الداخلي والخارجي من أهم الوسائل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية إفريقيا جنوب الصحراء، وبانتشار الدعوة الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء تغيرت حياة المجتمع الأفريقي في كل ميادين الحياة حين اتبع هدي الإسلام، وبانتشار الدعوة الإسلامية في أفريقيا جنوب الصحراء أصبحت اللغة العربية لغة التعليم والتخاطب والمكاتبات الإدارية والمراسلات الداخلية والخارجية، وبفضل الإسلام قامت هناك مؤسسات التعليم في شتى أنحاء هذه المنطقة مما كان لها الدور الفعال في تغيير حياة الشعوب في أفريقيا من المسار الجاهلي. ويعتبر المسجد والمسيج والمدرسة من المراكز الرئيسة التي كان لها الدور الفعّال في نشر التعليم والثقافة الإسلامية واللغة العربية وآدابها في أفريقيا جنوب الصحراء.

الهَوامِشُ:

(١) إبراهيم أنيس، وآخرون: **المعجم الوسيط**، ج١، ط١، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، إسطنبول، ١٩٧٢م، مادة (هجرة).

(٢) علي محمد عبد اللطيف: **إفريقيا العربية**، ط١، مكتبة الإعلام والبحوث، جمعية الدعوة العالمية، بنغازي، ١٩٩٨م ص٣٩.

(٣) جوزيف كيزاربو: **تاريخ إفريقيا السوداء**، سلسلة دراسات إفريقية (ترجمة الشيخ حسين) ط١، دار الجماهيرية للنشر، مصراته، ٢٠٠١، ص١٣٩

(٤) شوقي: **الحضارة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا سماتها وعوامل انتشارها**، مجلة معهد البحوث والدراسات، القاهرة، العدد الثامن، ص٣٣.

(٥) مقلد: **حركة المد الإسلامي**، ص١٢٥.

(٦) باسل دافدسون: **إفريقيا القديمة تكتشف من جديد**، الدار القومية للطباعة والنشر، ص٥١.

(٧) كيزاربو، مرجع سبق ذكره، ص١٤٧.

(٨) الشيخ إبراهيم صالح: **تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم برنو**، الخرطوم ١٩٩٤م، ص١٥.

(٩) حسن عابدين، **معالم التاريخ الأفريقي**، دار النشر التربوي، ١٩٩٤م، ص٢٢.

(١٠) عبد الرحمن عمر الماحي: **الدعوة الإسلامية في إفريقيا الواقع والمستقبل**، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، طرابلس ١٩٩٩، ص٣٠

(١١) جميل عبد الله محمد المصري: **حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة**، ط١، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٦، ص٣٨٢.

(١٢) فيصل محمد موسى: **موجز تاريخ أفريقيا المعاصر**، ص٥١.

(١٣) السيد عبد العزيز سالم: **تاريخ المغرب الكبير العصر الإسلامي**، ج٢، ص٢٥٧.

(١٤) عبد الرحمن عمر الماحي، المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨.

(١٥) مرجع سبق ذكره، ص١٠٩.

(١٦) أمطير سعد غيث: **التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي**، دار الكتب الوطنية، ١٩٩٦، ص ١٧٤.

(١٧) عبد الحميد عبد الله الهرامة: **أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء**، كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية العظمى، طرابلس، ط١، ١٩٩٩م، ص٨٤.

(١٨) الشاطر البصيلي: **تاريخ حضارات السودان الأوسط في القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادي**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٣٠.
(١٩) عبد الرحمن عمر الماحي: **ما هو التاريخ في المفهوم الإسلامي**، ورقة أكاديمية في مادة المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، جامعة الملك فيصل، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٥، ص٤١.
(٢٠) إبراهيم صالح الحسين: **تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم - برنو**، ط٢، شركة مكتبة، ٢٠٠٨م، الخرطوم، ١٩٧٠، ص٧١.
(٢١) مرجع سبق ذكره، ص٧٣.
(٢٢) فضل كلود: الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم، منشورات كلية الدعوة، ١٩٩٨م، ص١٣٦.
(٢٣) بكري عطية العشري: **الكتاتيب الغراء في إفريقيا جنوب الصحراء**، ندوة التعليم العربي وأثره في التنمية، جامعة الملك فيصل، ٢٠٠٤م ص٥٩.
(٢٤) عطية مخزوم: **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء مرحلة انتشار الإسلام**، دار الكتب الوطنية، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢٢٦.